قد تبدو هذه المقطوعات بخطوطها الغريبة وألوانها المبهمة الغامضة ضرباً من العبث في منطق القارىء الذي لم يألف ذهنه غير الوضوح التقليدي وغير السرعة في الترابط الحكمي • وليس بعيداً أن تتداعى في ذاكرته محفوظات قياسية تدفعه الى الاعتقاد ان مثل هذه الألفاظ والعبارات التي يستعملها السريالي في تسجيل « أخيلته » والتي تبدو وكأنه ليس من جامع بينها ، ألفاظ وعبارات تكاد تكون عادية في حدودها الذاتية الضيقة • وليس بعيداً أيضاً أن يدفعه مثل هذا الاعتقاد الى اعتقاد آخر يوهمه أن في وسع أي فردٍ آخر أن يصنع انتاجاً سريالياً • فحسبه، مثلاً ، أن يقول « منضدة .. يد تسير .. ضباب عابس » ليؤكد لنفسه أو لغيره صحة النتائج الترابطية الحكمية التي انتهت اليها محفوظاته القياسية •

ان الكتابة في منطق أي فرد أمي لا تزيد عن كونها خطوطاً متشابهة لبعضها استطالات ولبعضها الآخر انحناءات • وقد لا يستطيع مثل هذا الفرد أن يفرق بين كتابة عربية أو افرنجية أو عبرية أو أرمنية • لأنها ، كلها ، في اعتباره مجموعة خطوط هندسية تتشابه في استطالاتها وانحناءاتها • وقد تدفعه الرغبة اللاواعية في التفوق التقليدي الى محاكاة ما يصنعه الذين يعرفون الكتابة • فيحاول أن يرسم بعض الكلمات التي يختارها بالصدفة فيرسمها رسماً يرى فيه ، بالنسبة الى منطقه هو ، مطابقة صحيحة للأصل الذي رسم عنه • وقد لا يستطيع أي فرد أمي آخر أن يميز بين الأصل وبين هذا الرسم • ولكن الأمر بالنسبة لفرد آخر خبر بعض حواسه القراءة والكتابة وترابطت في حافظته معاني الاستطالات والانحناءات فانه من السهولة أن يميز بين الجد والهزل •

ان هذا المثل الساذج يغني عن كثير من الايضاح العلمي في الاجابة على سؤال قد يولده منطق القارىء الذي لم يألف ذهنه غير الوضوح التقليدي وغير السرعة في الترابط الحكمي • هذا السؤال الذين يمكن أن يكون مضمونه « اذا كانت السريالية في الكتابة تبدو مقصورة على الجمع بين ألفاظ وعبارات لا ترابط بينها ، بصرف النظر عن استثارة هذه الألفاظ والعبارات لجو انفعالي خاص أو عدم استثارتها لمثل هذا الجو ، فكيف نستطيع التمييز بين قطعة سريالية وأخرى تعمد صاحبها بدافع الجهل أو المجون اصطناع السريالية في الكتابة ؟ » •

والسريالية في الكتابة تشبه من وجوهٍ كثيرة ما يحاول تحقيقه ، اليوم ، رجال العلم في طرق تغذية الانسان • انهم يحاولون ، وقد نجحوا في ذلك الى حد بعيد ، أن يجعلوا حبة في حجم الحمصة أن تعطي الفرد العادي ما يحتاجه جسمه من الحيوي (ج) مثلاً دون أن يضطر الى ارهاق جهازه الهضمي بتناول ثلاث أو أربع برتقالات ؛ وان تمتعه الحبة ذاتها بذات الاحساس الذوقي الذي يولده طعم البرتقال المعروف •

غير أن الفرق بين استساغة الذهن للسريالية واستساغة حاسة الذوق وارتياح أعصاب المعدة وعضلاتها للحبوب المدسمة هو كالفرق بين الدماغ والمعدة ذاتهما !

ان الكلام المنظوم المقفى في جميع اللغات على اختلاف أنواعها والمسمى شعراً ليس في الواقع العلمي الا كلاماً جميلاً له اهتزازاته التوقيعية ولوحاته المغرية التي يستمتع بها الفرد استمتاعاً قوامه ميكانيكية العادة وترابط أخيلة الشوق الجنسي في أشكالها المستترة الوقورة •

الا أن هناك نواحي أخرى نلمحها من خلال كل ما في كياننا من

وسائط اتصال بالحياة في أشكالها المنوعة ومراحلها المختلفة • نواحي نرى فيها هذه الأخيلة وقد تعرت من وقارها ، ونرى العادة وقد ارتدت تدفقاً لتيار لا يلقى مقاومة في الخلايا العصبية ، ونرى مثلنا العليا ، ورغباتنا الجليلة ، وآمالنا الحلوة ، وطموحنا بما فيه من استثارة وتفريغ، ونرى نضالنا ، وكرامتنا الفردية والاجتماعية ، وأطفالنا الذين نفخر بقذفهم الى الوجود •• نرى كل ذلك وقد أصبح جوهراً واحداً يشعرنا شعوراً واضحاً دقيقاً بارتباطنا وتماثلنا شكلا وانطلاقاً وهيولى مع كل كائن ينمو ويتوالد أو يتحطم ويتحول على هذه الكرة الكبيرة • ونرى أيضاً أننا ، بالرغم من كل ذلك ، لا نستطيع أن نطمس في أعماق خلايانا خطوط السراب المبعثرة في زواياها لهذه المجموعات التي أصبحت جوهراً واحداً •

هنا يندمج الآله المبدع والجنين المبدَع فيؤلفان كياناً واحداً ونظرة واحدة وشعوراً واحداً وحياة واحدة تمتد ملايين السنين •

وبين خطوط هذا السراب وفي ظلال المعرفة الممتدة ملايين من السنين المكانية أيضاً يسرح هذا الكيان الموحد ناثراً هنا وهناك خطوطاً مبهمة غامضة لم تحنطها السنون ولا قيدها امتداد البصر الفردي •

هذه الخطوط الغامضة المبهمة هي التي تكوّن مادة الانتاج الفني الصحيح في الشعر والرسم والموسيقا •

• • •

كان الدكتور علي الناصر ، حتى زمن قريب ، في جملة الذين يأكلون البرتقال بكميات كبيرة [1] بدافع العادة والاستماع الآلي •

(١) راجع مؤلفاته : « قصة قلب » و « الظمأ » و « البلدة المسحورة » و « الأعوار » •

غير أنه كان سريع الاستجابة لتطور الفكر الانساني وكان عقله سريع التحول من الشكل التكعيبي الى الشكل الانسيابي ، فاستذوق الحبوب المدسمة وعاف كميات الألياف التي ترهق أجهزة الجسم المختلفة• فاستطاع أن يقول في كلمات قليلة ما كان يقوله بالأمس في سطور كثيرة•

نظم الدكتور المقطوعة التالية المؤلفة من ٧٦ كلمة في عام ١٩٣٧ :

قال لي القلب ساخراً في المساء
قم نضع زهرة على قبر حزنك
ذاك حق الوفاء ، ايه لماذا
حجبت بالضباب آفاق عينك ؟
لم أجبه • فقادني مذهولا
ودرجنا على الرفات طويلا
أضللناه ؟ لست أدري ولكن
تحت هذي الألواح اني دفنته
ها هي السروة التي غرستها
أنلي في التراب حين لحدته

انحنينا على الضريح لنلقي

زهرة من ولائد الأضواء

فتعالى من جانبيه فحيح

بارد كارتعاشة استهزاء

نشر الحزن وهلة في المساء

وكان منه هذا تسجيلاً لحالة شعورية عابرة • غير أن الجو الذي ولده تسجيل هذه الحالة وتداعي الحالات الفكرية والوجدانية التي أعقبت هذا التسجيل على مراحل لا ضرورة لضبطها ضبطاً علمياً دقيقاً في رسالة مقتضبة مثل هذه ؛ كل ذلك قد انحدر الى اللاشعور الذي صهره وتبناه وقذفه في عام ١٩٤٧ كما هو في قطعته السريالية المؤلفة من ١٦ كلمة :

شفة

أشلاء من زهرة ممزقة

مشوهة لم يبق من تناسقها

الا قطرة دم

ترنو الى عين •

وفي عام ١٩٣٩ نظم مقطوعته التالية المؤلفة من «١١٣» كلمة :

سكون واين لقلبي السكون

وفيه العواصف لا تنثني

سكون أهدهد غمي به

كقبر الغريب بقفر هني

فلا الأم تنثر فيه الزهور

ولا الركب يسري بارجائه

ولا من (نكير) عبوس دقيق

يسجل منسيّ بأسائه

حياة تحرّكُ منذ الوجود

بسوطِ أصمٍ عظيم عمي

تحرك لا خيرها يرتجى

ولا الشر طبعاً لها ينتمي

هناء اذا ما قبلت الهناء

قصير وفيه شقاء مديد

هنـاء أدرب نفسي عليه

وأقبض كفي وكفي حديـد

وأقبض كفي عليـه بحرصٍ

وأفتح كفي فسخـاً أرى

يقهقـه مـن غفلتي هازئـاً

فأمشي ومشيتي القهقرى

أقيـم لوهمـي واتباعـه

تماثيل في قدسهـا أركـع

وأقرع صدري وأقرع صدري

وأحرق روحي ؛ لهـا أضرع

ولمـا أزيل سحاب الدمـوع

تراءى لمقلتي الساعـره

بدايـة شؤم ، لها ظاهـره

تعانـق ما زج في الآخره .

وفي عام ١٩٤٧ أخرج اللاشعور هـذه المقطوعة مصهورة مع كـل الأجـواء اللازمنية التي عاشت في معرفة واختبار وحوادث وأحـلام الدكتور في مقطوعته السريالية المؤلفة من « ١٢ » كلمة :

أنا .. أنا ..

نيزك

ذرة فحم

آله مبدَع مبدِع

عفن

قنوط

منفث عار .

★ ★ ★

ان العين الثرة أقل روعة جداً من عين دموعها محترقة .

ا . ميسر